Journal of Alasmarya University
Volume 1, June 2003

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الأول، يونيو 2003

من أسرار الإعجاز القرآني

الدكتور
عبد الله محمد النقراط
جامعة الفاتح

من أسرار الإعجاز القرآني

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه المعجز، على نبيه الكريم، مؤيداً لرسالته، ودليلاً على صدق نبوته ـ والصلاة والسلام ـ على من أوتي المعجزة الخالدة، سيدنا محمد وعلى آله، وصحبه أجمعين، وبعد. . .

فإن أسرار القرآن الكريم كثيرة، ومن بين هذه الأسرار الإعجاز القرآني الذي هو معجزة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى قيام الساعة. وقد اختلف العلماء قدامى ومحدثون في وجوه إعجاز القرآن الكريم اختلافاً واسعاً، فكل يراه في جانب من الجوانب، أو أكثر من ذلك.

ومن الذين تعرضوا لوجوه إعجاز القرآن أبو سليمان الخطابي في رسالته «بيان إعجاز القرآن» وقد تصدى لبيان هذه الوجوه، مشيراً إلى آراء السابقين، ورادا عليها بأدلة منطقية، وها أنا ألخص بعضاً منها، لنتبين من خلالها هذه الوجوه، للوقوف على أسرار القرآن وإعجازه.

فقال: «قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديماً وحديثاً، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعد صدروا عن رأي، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته.

فأما أن يكون قد بقيت في النفوس بقية بكونه معجزاً للخلق ممتنعاً

عليهم الإتيان بمثله على حال، فلا موضع لها، والأمر في ذلك أبين من أن يحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه. وذلك أن النبي ﷺ قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه، وانقطعوا دونه.

وقد بقي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهراً لهم النكير، زارياً على أديانهم، مسفها آراءهم وأحلامهم... ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة... وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام، ووفارة العقول والألباب. وقد كان فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء المفلقون، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بالجدل واللدد فقال سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[2]، فكيف كان يجوز ـ على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة ـ أن يغفلوه، ولا يهتبلوا[3] الفرصة فيه، وأن يضربوا عنه صفحاً، ولا يحوزوا الفلج والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه، والعجز المانع منه»[4].

ومن ثم فإن هذه الدراسة ستبين بعض أسرار الإعجاز القرآني التي تجملها في الفقرات الآتية:

أولاً: السر في عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن

اختلف العلماء في هذا السر، فذهبت طائفة قليلة إلى أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن، فسلبهم المقدرة، أو أسلبهم الداعي، لتقوم الحجة عليهم بمرأى ومسمع من جميع العرب.

(1) سورة الزخرف من الآية 58.
(2) سورة مريم 97.
(3) يهتبلوا: يغتنموا الفرصة فيه (ينظر مختار القاموس ص627 مادة: هبل).
(4) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص21-22.

ويعرف هذا القول بالصرفة، وأما الذي عليه جمهور أهل العلم والتحقيق، واقتصر عليه أئمة الأشعرية، وإمام الحرمين، وعليه الجاحظ، وأهل العربية، فالتعليل لعجز المتحدين به بأنه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة، مبلغاً تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله. وقد عد كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن الإخبار عن المغيبات، مما دل على أنه منزل من علام الغيوب[5].

ويرى الرماني أن وجوه إعجاز القرآن تظهر في سبع جهات هي: ترك المعارضة مع توفر الداعي وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة[6].

وقد تصدى لبيان سر الإعجاز القرآني، الإمام أبو بكر الباقلاني، في كتابه «إعجاز القرآن» وأطال الحديث في هذا الجانب، وخلاصته أن نبوة نبينا ﷺ بنيت على هذه المعجزة، وإن كان قد أُيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصين، ونقل بعضها نقلاً متواتراً يقع به العلم وجوداً، وبعضها مما نقل نقلاً خاصاً.

فأما دلالة القرآن فهي عن معجزة عامة عمّت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها من أول ورودها إلى يوم القيامة على حدّ واحد. والذي يدل على هذا الأصل أنه تحداهم إلى أن يأتوا بمثله في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فلم يستطيعوا ذلك، وثبت عجزهم، فدل على أنه من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو دليل على وحدانيته[7].

(5) التحرير والتنوير 1/ 103-105.

(6) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص75.

(7) إعجاز القرآن للباقلاني ص 31-40 بتصرف.

وقال محمد الطاهر بن عاشور: «إن العناية بما نحن في صدده من وجوه إعجاز القرآن، إنما نبعت من مختزن أصلٍ كبير من أصول الإسلام، وهو كونه المعجزة الكبرى، للنبي ﷺ وكونه المعجزة الباقية التي تحدى بها الرسول معانديه تحدياً صريحاً»[8].

«ولما كان إعجازه لمزايا فيه تعلو قدرة المخلوق علماً وحكماً، وبياناً للعلم والحكمة، حار العلماء في تحديد وجه الإعجاز بعد ثبوته بالعلم اليقيني الذي بلغ حد الضرورة في ظهوره»[9].

وقال الخطابي: «واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً، لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة... واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يُرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه»[10].

إن سر إعجاز القرآن في كل ما اشتمل عليه من مقاصد جليلة، وبلاغة عالية، يبينها تصريفه العجيب، الذي هو من أسرار هذا الإعجاز، وهو ما سنتكلم عنه في الفقرة التالية:

ثانياً: من أسرار الإعجاز القرآني: التصريف

نضيف إلى ما ذكره العلماء في وجوه إعجاز القرآن الكريم، التصريف، الذي يعد وجهاً من وجوه إعجازه، وسراً من أسرار بلاغته، وذلك لما اشتمل عليه من تنويع عجيب في المقاصد والأساليب، ومن ثم نستطيع القول: إن إعجاز القرآن يكمن في كل ما اشتمل عليه من مقاصد سامية،

(8) التحرير والتنوير 1 / 102.

(9) تفسير المنار 1/ 198.

(10) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص27.

وأسرار بلاغية بديعة، صرف القرآن الكريم بيانها، بطرائق شتى وأساليب مختلفة.

إن هذه المقاصد العظيمة، والأسرار البلاغية العالية، ذكرها المولى ـ عز وجل ـ في هذا التصريف البديع، والتنويع العجيب، إذ يقول الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[11]، وقال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[12]، وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[13]، وقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[14]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾[15]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[16]، وغيرها من الآيات الدالة على التصريف في القرآن الكريم.

إن المتأمل في الآيات الكريمة السابقة يتبين له الإعجاز واضحاً جلياً، في تصريف القرآن الكريم بطرائق مختلفة، وإيرادها على وجوه كثيرة في سائر المواضع، لتكمل الحجة على المخالفين[17].

وكذلك في تنويع الحجج، والبيانات الكثيرة، وجعلها على وجوه شتى[18] وذلك لتقرير أصول العقيدة، وعرض أدلتها، وبيان الحجج والدلائل الدالة على الوحدانية، وإثبات البعث والجزاء، والنبوة والرسالة، وإيراد

(11) سورة الأنعام الآية 47.
(12) سورة الأنعام الآية 66.
(13) سورة الأنعام الآية 106.
(14) سورة الأعراف الآية 57.
(15) سورة الإسراء الآية 41.
(16) سورة الإسراء الآية 89.
(17) ينظر محاسن التأويل 6/ 2456.
(18) ينظر تفسير المنار 7/ 417.

القصص والأمثال، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والشرائع والأحكام، والأوامر والنواهي، وما إلى ذلك مما صرف القرآن بيانه[19].

إن هذا التنويع ـ سواء في المقاصد أو في البلاغة مما أعجز الإنس والجن عن معارضة القرآن الكريم، وهو من السر العظيم الذي يكمن فيه الإعجاز القرآني.

والمولى ـ سبحانه وتعالى ـ عندما يأمر بالنظر والتأمل في تصريف الآيات، فإن من وراء ذلك النظر والتأمل ـ الوصول إلى توحيده وعبادته وحده، وإلى معرفة الأسرار العظيمة، والمقاصد السامية التي اشتمل عليها التصريف القرآني.

ويظهر الإعجاز أيضاً في ترتيب المقاصد والأساليب، وانتقالها وترابطها، وتماسكها المتين الذي لا نظير له.

ومن ذلك أن القرآن الكريم «تارة يأتي بالقصة باللفظ الطويل، ثم يعيدها باللفظ الوجيز، ولا يخل بالمقصود الأول»[20] فهذا من أسرار التصريف القرآني البديع.

ومما يدل على أن التصريف من وجوه الإعجاز القرآني أن المولى ـ سبحانه وتعالى ـ عندما أمر نبيه أن يتحدى الإنس والجن بالقرآن كاملاً في سورة الإسراء، أعقب ذلك بذكر التصريف، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[21].

قال أبو حيان: «ولما ذكر ـ تعالى ـ عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، نبه على فضله ـ تعالى ـ لما ردد فيه، وضرب من الأمثال

(19) التصريف في الدراسات القرآنية والبلاغية، بحث منشور في مجلة كلية الدعوة الإسلامية العدد السابع عشر ص462.

(20) تفسير الخازن، المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل 1/ 31.

(21) سورة الإسراء الآية 89.

والعبر التي تدل على توحيده ـ تعالى ـ ومع كثرة ما ردد من الأمثلة، وأسبغ من النعم لم يكونوا إلا كافرين به وبنعمه»[22].

وقد تنبه بعض العلماء إلى هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وأشاروا إليه إشارات متناثرة جاءت في ثنايا مؤلفاتهم.

فهذا الرماني أول من ذكر هذا الوجه في رسالته «النكت في إعجاز القرآن». وقد عد التصريف باباً خاصاً من أبواب البلاغة العشرة، التي تكلم فيها، فقال: «والبلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان»[23].

وعرف التصريف بأنه: «تصريف المعنى في المعاني المختلفة، كتصريفه في الدلالات المختلفة، وهو عقدها به على جهة التعاقب، فتصريف المعنى في المعاني كتصريف الأصل في الاشتقاق في المعاني المختلفة، وهذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعاني التي تظهره وتدل عليه.

أما تصريف المعنى في الدلالات المختلفة، فقد جاء في القرآن في غير قصة، منها قصة موسى ـ عليه السلام ـ ذكرت في سورة الأعراف وفي طه، والشعراء، وغيرها لوجوه من الحكمة، منها: التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة، ومنها تمكين العبرة والموعظة، ومنها حل الشبهة في المعجزة، فظهور الحجاج على الكفار بأن أتى في المعنى الواحد بالدلالات المختلفة فيما هو من البلاغة في أعلى طبقة»[24].

وأشار إليه الباقلاني في حديثه عن الإعجاز، فقال: «وذلك أن نظم

(22) تفسير البحر المحيط 6/ 77.

(23) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص76.

(24) نفسه ص101-102.

القرآن على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد»[25].

وقال أيضاً: «وهو أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين، على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها... وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، والتحول من باب إلى باب... والقرآن على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف»[26].

وقال الإمام محمد أبو زهرة: «أما القرآن المعجز الذي هو فوق قدر البشر فإن البلاغة فيه في كل أبواب القول، وهي في كل باب تعلو علواً كبيراً عن المجيدين في هذا الباب وحده، ولذلك كان تصريف القول فيه من تهديد، وإنذار وتبشير، وإثارة للتأمل، ودعوة للتفكير في آيات الله الكونية والقرآنية، والتفكير في النفس، وفي الحس، كل ذلك من دلائل الإعجاز وسره»[27].

ويشير الرافعي إلى هذا الوجه فيقول: «وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها، وتقعد بك العبارة

(25) إعجاز القرآن ص59.

(26) نفسه ص60-62.

(27) المعجزة الكبرى القرآن ص155.

إذا أنت حاولت أن تمضي في وصفه حتى لا ترى في اللغة كلها أدلّ على غرضك وأجمع لما في نفسك، وأبين لهذه الحقيقة، غير كلمة الإعجاز»[28].

ثالثاً: من أسرار التعبير في آيات التحدي

إن المتأمل في الآيات التي وقع بها التحدي يجد أن القرآن عبر في سورة البقرة بقوله: (من مثله) وفي سورة يونس (مثله) وعبر في سورة هود (بعشر سور) ووصفها بمفتريات، وفي التعبير في سورة البقرة بقوله: (وادعوا شهداءكم) وفي هود ويونس: (من استطعتم) فما سر التعبير في هذه السور؟. إن هذا التصريف هو سر من أسرار الإعجاز القرآني، الذي ينفي التكرار عن الآيات المتشابهة، وعن غيرها، لأن لكل حرف في القرآن دلالته، ولكل كلمة دلالتها أيضاً.

وقد بين الكرماني فرق التعبير بين ما ورد في سورة البقرة (من مثله) وما ورد في سورة يونس (مثله) فقال: «لأن من تدل على التبعيض، ولما كانت هذه السورة سنام القرآن وأوله بعد الفاتحة، حسُنَ دخول (من) فيها ليُعلَم أن التحدي واقع على جميع سور القرآن من أوله إلى آخره، وغيرها من السور لو دخلها (من) لكان التحدي واقعاً على بعض السور دون بعض، ولم يكن ذلك بالسهل»[29].

وقد فصل القول ابن الزبير الغرناطي في سر هذا التصريف موضحاً دقائق مهمة في التفريق بين هذه الآيات التي اختلفت في بعض تعبيراتها ـ كما رأينا ـ.

ومما لا ريب فيه أن هذه الدقائق تنفي صفة التكرار عن هذه الآيات الكريمة، وعن غيرها، وتثبت لها التصريف الذي هو من أسرار الإعجاز

(28) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص246.

(29) البرهان في متشابه القرآن 116-118.

القرآني، وها أنا أستشهد بما ذكره ابن الزبير لبيان سر هذه التعبيرات ودقائقها.

قال عن الفرق الأول: «إن المراد إراءتهم ما يرفع شكهم في نبوة محمد ﷺ فكأن قد قيل إن شككتم في نبوءته وتخصيصنا إياه بذلك فلتأتوا برجل منكم غيره يصدر عنه، أو يأتي بسورة واحدة من نمط ما سمعتم من محمد ﷺ... فإذا عجزتم عن ذلك مع التماثل في الخلق والعلم بمقادير الكلام... فاتخذوا وقاية تنجيكم من النار... فلما كان المراد هنا ما ذكرنا لم يكن بد من «من» التبعيضية في قوله: (من مثله).

وأما الوارد في سورة يونس، فإنما أريد به ما يجري مع قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾[30] فقيل لهم إذا كان مفترى - كما تزعمون - فما المانع لكم عن معارضته؟ فأتوا بسورة مماثلة للقرآن، فالمراد هنا نفي كلام مماثل للقرآن، وإقامة الحجة عليهم بعجزهم عن ذلك، والمراد في البقرة نفي شخص يماثله ﷺ في أن يسمع منه ما يماثل سورة واحدة من مثل القرآن في فصاحته وعجائبه، فاختلف المقصدان في السورتين مع الائتلاف في تعجيزهم عن هذا وهذا، فلما اختلفا لم يكن بد من «من» في الأولى لإحراز معناها، ولم تأت في يونس، لحصول المعنى المقصود فيها دون «من»[31].

وأما عن الفرق الثاني، وهو التعبير في سورة هود (بعشر سور) فقال:

«فإنه لما قيل هنا مفتريات فوسع عليهم ناسبه التوسعة في العدد المطلوب، لأن الكلام المفترى أسهل، فناسبه التوسعة. أما الوارد في السورتين قبل فلم يذكر لهم فيهما أن يكون مفترى عليه، بل السابق من الآيتين المماثلة مطلقاً، وذلك أصعب وأشق عليهم مع عجزهم في كل

(30) من الآية 38.

(31) ملاك التأويل 1/ 38-39.

حال، فوقع الطلب حيث التضييق بسورة واحدة، وحيث التوسعة بعشر سور مناسبة جلية واضحة»[32].

وأما عن الفرق الثالث ـ وهو وصف ما جاء في سورة هود: بمفتريات ـ فقال: «ليحصل عجزهم بكل جهة فلا يقدرون على وجود شخص مماثل له ﷺ في ظاهر الصورة الجنسية سُمع منه ما يُسمع من محمد ﷺ ولا يقدرون على مثل سورة واحدة من سور القرآن.

ولما كان ظاهر هاتين الآيتين المماثلة مطلقاً قيل بعد ذلك ائتوا بكلام مفترى على سهولة ما لا يتقيد بسوى الفصاحة، وجاء ذلك من طلبهم بالتدريج فأولا بالمماثلة من غير ذكر مفترى، ثم قيل لهم جيئوا بمفترى فلم يبق لهم عذر إلا العناد»[33].

وأما عن الفرق الرابع المتمثل في التعبير في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ وفي الموضعين الآخرين بقوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾، فالمراد به ـ على ما ذكر ابن الزبير ـ من يشهد لكم أن شخصاً مثله ﷺ قد سمع منه ما طلب منكم، إذ لا يكفي في هذا دعوى المدعي، فقيل لهم: ائتوا بسورة من شخص مثله في الجنسية، وقيل لهم في سورة يونس: فأتوا بسورة مثل القرآن واستعينوا على ذلك بما قدرتم، فلم يطلبوا هنا بمن يشهد لهم، وإنما قيل لهم استعينوا في النظم والتأليف بمن قدرتم[34].

وقد نبه لما في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ من معانٍ دقيقة محمد الطاهر بن عاشور، بقوله: «ففي الآية إدماج توبيخهم على الشرك في أثناء التعجيز عن المعارضة، وهذا الإدماج من أفانين البلاغة، أن يكون مراد البليغ غرضين، فيقرن الغرض المسوق له الكلام بالغرض الثاني، وفيه تظهر

(32) ملاك التأويل 1/ 39.

(33) نفسه ص40.

(34) نفسه.

مقدرة البليغ، إذ يأتي بذلك الاقتران بدون خروج عن غرضه المسوق له الكلام ولا تكلف»[35].

رابعاً: السر في التحدي بسورة لا أقل منها

لقد فصل القول في هذا السر العلامة محمد الطاهر بن عاشور بقوله: «وإنما كان التحدي بسورة ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن، لأن من جملة وجوه الإعجاز أموراً لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفى في غرض من الأغراض، وإنما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة، فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم، ونكت الإجمال والتفصيل، وأحكام الانتقال من فن إلى آخر من فنون الغرض، ومناسبات الاستطراد، والاعتراض، والخروج والرجوع، وفصل الجمل ووصلها، والإيجاز والإطناب، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام، وتلك لا تظهر مطابقتها جلية إلا إذا تم الكلام، واستوفى الغرض حقه، فلا جرم أن كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجاز يفوت قدرة البشر هو غير الإعجاز الذي لجمله وتراكيبه، وفصاحة ألفاظه، فكانت السورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب، وقصيدة الشاعر، لا يحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها.

قال الطيبي في حاشية الكشاف عند قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ في سورة الأنفال[36] ولسر النظم القرآني كان التحدي بالسورة وإن كانت قصيرة دون الآيات، وإن كانت ذوات عدد»[37].

(35) التحرير والتنوير 1/ 339.

(36) الآية 17.

(37) التحرير والتنوير 1/ 337.

خامساً: التدلي من الصعب إلى السهل

إن المتأمل في الآيات التي وقع بها التحدي للعرب يجد أنها تدرجت من الصعب إلى السهل في كل مرة، تمشياً مع المواقف التي وقع فيها التحدي، وهو ما نسميه بالتدلي، الذي هو من وجوه تصريف القول في القرآن الكريم، وأنها من البيان المعجز.

وآيات التحدي نزلت في ست سور منها خمس مكية، وهي بحسب ترتيب نزولها: سورة القصص، والإسراء، ويونس، وهود، والطور.

وسورة مدنية هي سنام القرآن العظيم وأول سورة نزلت في المدينة[38].

وقد تدرج التحدي حسب نزول آياته، فبدأ بمطالبتهم بالإتيان بكتاب من عند الله ـ تعالى ـ هو أهدى مما أوتي موسى ومن القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[39].

قال أبو السعود قوله تعالى: «﴿أَتَّبِعْهُ﴾ جواب للأمر، أي إن تأتوا به أتبعه، ومثل هذا الشرط مما يأتي به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بيِّن الاستحالة، فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام»[40].

ثم جاء التحدي بالإتيان بكتاب مثل ما نزل منه، فقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[41].

(38) ينظر البرهان في متشابه القرآن ص116 وما بعدها.

(39) سورة القصص الآية 49.

(40) إرشاد العقل السليم 7/ 18.

(41) سورة الإسراء الآية 88.

قال أبو حيان: «لما ذكر ـ تعالى ـ إنعامه على نبيه ﷺ بالنبوة وبإنزال وحيه عليه وباهر قدرته بأنه ـ تعالى ـ لو شاء لذهب بالقرآن، ذكر ما منحه ـ تعالى ـ من الدليل على نبوته الباقي بقاء الدهر، وهو القرآن الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله، وأنه من أكبر النعم عليه، والفضل الذي أبقى له ذكراً إلى آخر الدهر، ورفع له قدراً به في الدنيا والآخرة»[42].

وفي الآية السابقة إعلام منه ـ تعالى ـ بأن العالمين مجتمعين لا يستطيعون الإتيان بمثل هذا القرآن، وهو تحد عام للإنس والجن، وكان هذا توطئة للانتقال بهم إلى تحديهم بسورة منه[43].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور: «فلما عجزوا استنزلوا إلى الإتيان بعشر[44] سور مثله في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[45]. ثم استنزلوا إلى الإتيان بسورة مثله في سورة يونس[46] فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[47].

قال محقق البرهان في متشابه القرآن: «ولما كانت سورة هود قد نزلت بعد مضي عشر سنوات للبعثة ناسب تحديهم بعشر سور، أي سورة في

(42) تفسير البحر المحيط 6/ 75.

(43) ينظر البرهان في متشابه القرآن ص117 هـ2.

(44) قال صاحب تفسير المنار: «ولعل وجه التحدي بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة هو إرادة نوع خاص من أنواع الإعجاز، وهو الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة، متساوية في البلاغة» (تفسير المنار 1/ 293).إن في الكلام السابق تلميحاً للتصريف القرآني الذي هو من أسرار إعجازه، وذلك ما بينه بقوله: «الإتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة».

(45) الآية 13.

(46) التحرير والتنوير 1/ 337.

(47) الآية 38.

مقابل كل سنة، وكان عدد السور التي نزلت خلال هذه السنوات العشر (خمسين سورة) مكية. ولما كان التحدي في الإتيان بالمماثلة مطلقاً أضيق عليهم، وسع عليهم في سورة هود، وقابل دعواهم الافتراء بمطالبتهم بسور مثله مفتريات، وأطلق لهم الاستعانة بمن شاؤوا من دونه ـ عز وجل ـ. ثم التحدي في الإتيان بحديث مثله، وهو آخر تحدٍ نزل بمكة ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾[48].

والالتفات في هذا التحدي إلى منكري الكتب الإلهية أشد، ولذا قال بعده: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾[49]. إعلام للعالمين بعجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن، وهذا الإعلام ختم آيات التحدي في أولى سورة نزلت بالمدينة وهذا الختم جاء بعد أن استقصت آيات التحدي جميع صوره التي يزول معها كل عذر في عدم الاستجابة له: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[50].

والالتفات في آية أولى الزهراوين إلى أهل أشد، لأن ادعاء القدرة على الإتيان بالمثل صادر عنهم، لاعتقادهم أن ذلك ممكن من كتب العهدين القديم والجديد.

ولا يتصور ادعاء وجود المثل إلا من معترف بالكتب الإلهية منكر للقرآن العظيم. وهنا نكتة إعجاز فاتت على الكثيرين، وهي أن الإتيان بسورة يتطلب وجود المثل الذي انتزعت منه السورة، وهو ما لا تطيقه جميع المخلوقات»[51].

(48) سورة الطور الآيتان 31، 32.

(49) الآية 33.

(50) سورة البقرة 22.

(51) البرهان في متشابه القرآن ص117-118.

سادساً: السر في ختم آيات التحدي

إن المتأمل في آيات التحدي يجدها جميعاً قد ختمت بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ عدا آية سورة الإسراء فقد ختمت بقوله تعالى: ﴿ظَهِيرًا﴾ فما سر ذلك؟ . أقول ـ والله أعلم ـ إن هذه دقيقة من دقائق البيان القرآني، وسر من أسرار إعجازه، وذلك أن التحدي في سورة الإسراء كان للإنس والجن، فناسبه الختم بقوله: ﴿ظَهِيرًا﴾ لما فيه من التعاون والمناصرة.

وأما فيما ختم به الآيات الأخر بقوله تعالى: (إن كنتم صادقين) ففيه تكذيب لهم، وتحد ما بعده تحد، وإعجاز ما بعده إعجاز، وفيه أيضاً بيان بأن الذي يدعي دعوة لا بد أن يكون صادقاً فيها بحيث يأتي بما طلب منه، بعكس ما حصل من هؤلاء المفترين، فناسبه أن يأتي بذلك، تحدياً لهم، وبياناً لعجزهم، وتوبيخاً لهم.

قال أبو السعود: «وبين ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي في زعمكم أنه من كلامه ـ عليه السلام ـ وهو شرط حذف جوابه لدلالة ما سبق عليه، أي إن كنتم صادقين فأتوا بسورة من مثله الخ، واستلزم المقدم للتالي من حيث إن صدقهم في ذلك الزعم يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له ـ عليه السلام ـ في البشرية والعربية»[52].

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ اعتراض في آخر الكلام وتذييل أتى بإن الشرطية التي الأصل في شرطها أن يكون غير مقطوع بوقوعه، لأن صدقهم غير محتمل الوقوع. وإن كنتم صادقين في أن القرآن كلام بشر، وإنكم أوتيتم بمثله، والصدق ضد الكذب، وهما وصفان للخبر لا يخلو عن أحدهما، فالصدق أن يكون مدلول الكلام الخبري مطابقاً ومماثلاً للواقع في الخارج، أي في الوجود الخارجي احترازاً عن الوجود الذهني، والكذب ضد الصدق، وهو أن يكون مدلول الكلام الخبري غير مطابق، أي غير مماثل للواقع في

(52) إرشاد العقل السليم 1/ 66.

الخارج، والكلام موضوع للصدق، وأما الكذب فاحتمال عقلي[53].

نستخلص من العرض السابق أن أسرار الإعجاز القرآني كثيرة، ومتنوعة، ولا يتسع المقام لتتبعها جميعاً وهي دليل إعجازه، وسر عظمته. والحمد لله رب العالمين.

(53) ينظر التحرير والتنوير 1/ 341.

مصادر ومراجع البحث

1. القرآن الكريم، مصحف الجماهيرية، برواية الإمام قالون، أشرفت على إعداده وطباعته ونشره، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس ليبيا.

2. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط الرابعة 1414 هـ / 1994م.

3. إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، ط الأولى 1411 هـ/ 1991م.

4. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، تأليف مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت 1410 هـ/ 1990م.

5. البرهان في متشابه القرآن للكرماني، قدم له وراجعه أحمد عز الدين عبد الله خلف الله، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة، ط الأولى 1411هـ.

6. البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق، عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1413هـ/ 1993م.

7. التصريف في الدراسات القرآنية والبلاغية، بحث للدكتور: عبد الله محمد النقراط منشور في مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد السابع عشر 2000ف.

8. تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، النشرة الثانية، الدار التونسية للنشر 1973م.

9. تفسير الخازن، المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، تأليف علاء الدين الشهير بالخازن، ضبطه وصححه عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1415 هـ/ 1995م.

10. تفسير القرآن الحكيم، الشهير بتفسير المنار، للإمام محمد رشيد رضا، دار الفكر بيروت ط الثانية، د.ت.

11. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف القاهرة، د.ت.

12. محاسن التأويل، تأليف محمد جمال الدين القاسمي، طبع وتصحيح محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط الأولى 1376 هـ/ 1997.

13. مختار القاموس للأستاذ الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس ـ ط الثانية 1397 هـ/ 1977م.

14. المعجزة الكبرى للقرآن، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي 1390 هـ/ 1970م.

15. ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي، تحقيق محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية بيروت 1405 هـ/ 1985م.

◆◆◆